نقد الاستشراق
بين محمود شاكر وإدوارد سعيد

قراءة في المقدمات المنهجية (١)

شريف حتيتة الصافي
أكاديمي مصري

تهدف هذه المقالة إلى الوقوف على أهم مظاهر التباين والاتفاق في منهج نقد فكرة الاستشراق لدى كلٍ من الأستاذ (محمود شاكر ١٩٠٩ – ١٩٩٧م) والناقد الفلسطيني (إدوارد سعيد ١٩٣٥- ٢٠٠٣م)، ولعل القارئ لا حاجة لديه إلى التعريف بهما، فكلاهما علمٌ في ميدان الثقافة والمعرفة، وإنْ كان الأخير قد ذاع صيتُه، وانتشرت أفكاره على نحوٍ أوسع، وذلك لانتمائه إلى ثقافتين؛ الأولى العربية بوصفه مناضلاً فلسطينيًا هاجر من أجل قضيته، مسوِّقًا لها في بلاد الغرب، والثانية الغربية بوصفه حاصلاً على الجنسية الأمريكية، كاتبًا باللغة الإنجليزية عيونَ ما أنتج من فكرٍ وإبداعٍ ونقد.

إن مشروعية إجراء مقارنة بين رؤية الرجلين تأتي من أمرين؛ أولهما: أن كليهما صاحب مشروعٍ في نقد الاستشراق، وتشريح العقلية الغربية، واتخاذ موقفٍ منها، فأفكار الأستاذ شاكر المعروضة في كتاباته وجدت طريقها إلى عقول شباب الأمة ووجدانهم (بصرف النظر عن ملابسات تلبُّس هذه الأفكار بوجدانهم وحيثياته)، كذلك فإن كتاب «الاستشراق. المفاهيم الغربية للشرق» لإدوارد سعيد أصبح مرجعًا رئيسًا لكل من يقصد قراءة الفكر الغربي بوجه عام، وفكرة الاستشراق على وجه الخصوص، بصرف النظر كذلك عن مخاطبة أفكار هذا الكتاب (مطلق العقل) – إن صح التعبير – فقد خاطب العقل الغربي قبل العربي، ولعلَّ القارئ على علم بأنه نُشِر أول ما نُشِر بالإنجليزية[١].

وأما الأمر الآخر: هو أن كلا الرجلين مارس الإبداع والنقد على حدٍّ سواء، فالأستاذ محمود شاكر شاعرٌ وكاتبٌ وناقدٌ، كذلك كان إدوارد سعيد، ولا يخفى الأثر الذي يخلفه وجود هذه الصفات في الشخصية؛ فهذه الصفات تسهم في تحديد زوايا خاصة ودقيقة لتناول الأمور، وتخلِّفُ رهافةً في الفكر والشعور، مما يجعل إنتاجهَم يحمل بصمتهم الخاصة جدًّا، ويجعله موسومًا بميسم الطرافة والجدة والتفرُّد.

إن المتتبع لفكرة الاستشراق عند كليهما في كتاب سعيد السابق، أو في للهرسالة في الطريق إلى ثقافتنالله للأستاذ محمود شاكر، يجد أن الأستاذ شاكر يرى أن ظهور الاستشراق يعود إلى أن دخول أرض الإسلام استعصى على الغرب المسيحي واستعلى قرونًا على حد تعبيره، ومن ثَمَّ كان طريق الاستشراق هي الآلية البديلة للدخول، وبناءً على هذه الفكرة يتضح أن الأستاذ محمود شاكر ينطلق من ثنائية (الإسلام – المسيحية)،

لذلك فهو مرتبطٌ عنده بالتبشير الذي تناول أبعاده في كتابه «أباطيل وأسمار». بينما ينطلق إدوارد سعيد من ثنائية (الشرق والغرب)، حتى مع إشارته في أكثر من موضع إلى ما يشي بخصوصية «الشرق الأدنى»، أي بلاد العرب والمسلمين، إذ يقول: «الاستشراق أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يُسمَّى «الشرق» وبين ما يُسمَّى (في معظم الأحيان) الغرب»[٢].

إن ملمحًا مهمًّا يُعدُّ أساسًا فارقًا في النظرة إلى الاستشراق عند الرجلين؛ فمحمود شاكر يتعامل مع معنى الاستشراق على أنه جهدٌ عمليٌّ يرتبط بثنائية «التبشير» و«الاستعمار»، ومن ثم فهي حلقاتٌ ثلاثٌ تُفضي إحداها إلى الأخرى، وبناءً عليه فإنها مهمة تنفيذية اتحد الغربُ المسيحي كلُّه من أجل إنجازها، لكن الأمر يبدو مختلفًا عند إدوارد سعيد، فهو ينطلق من كون الاستشراق خطابًا، مستفيدًا في ذلك – كما يذكر – من كتاب «علم آثار المعرفة»[٣] لميشيل فوكو، حيث يقول: «إننا إن لم نفحص الاستشراق باعتباره لونًا من ألوان «الخطاب» فلن نتمكن مطلقًا من تفهُّم المبحث البالغ الانتظام الذي مكَّن الثقافة الأوروبية من تدبير أمور الشرق»[٤].

وفي سياق فكرة الخطاب ذاتها فإن إدوارد سعيد يستدرك قائلاً: «وليس معنى هذا أن الاستشراق هو الذي يحدد من جانبٍ واحدٍ ما يمُكِن أن يُقالَ عن الشرق»[٥]. إن إدوارد سعيد ينفُذ إلى ميكانيكية الدرس الاستشراقي – إن صح الوصف، فقد انطلق ليؤكد أن الحديث عن الاستشراق هو في حقيقته حديثٌ عن مشروعات ثقافية، ولذلك فالارتباط الفرنسي البريطاني بالشرق يختلف من وجهة نظره عن ارتباطه بأية دولة أخرى أوروبية أو أمريكية.

وبالعودة إلى ما عُرض في سياق هذه الفكرة، من أن محمود شاكر رأى أن الاستشراق فكرة تنفيذية نفذها الغربُ المسيحي مجتمعًا، فإننا سنجده يحدثنا عن «المسيحية الشمالية» في مقابل «دار الإسلام»، وهذا محورٌ مفصلي ومنهجي في التفرقة بين تناول الرجلين، ولا يجب – بالطبع – أن نغفل مسيحية إدوارد سعيد وأثرها في تناوله للاستشراق، كما سيتبين في مواضع قادمة.

يُشير الأستاذ محمود شاكر إلى أن المهمَّة انتهت، وإن بقي أثرها إلى يومنا هذا – على حدِّ تعبيره – وذلك بما انتهى المستشرقون إليه من جمع ما جمعوه من كتب بالشراء أو السرقة، كما يذكر، والأمر عند إدوارد سعيد مختلف؛ فثنائية الشرق والغرب لديه ثنائيةٌ أبدية ستبقى ما بقي هذا العالم، وما بقيت سطوة الغرب، فهذه الثنائية هي العمود الفقري لفكرة الاستشراق، فالفكرة ستبقى ويُروَّج لها بالجوانب التطبيقية لها، لا لشيء إلا لتثبت تفوُّقَ الغرب على الشرق، ومن ثَمَّ فإن عمل الاستشراق لن يتوقف لأنه يخدم تلك الثنائية، كذلك فإن هذه الثنائية تعتمد على المراوغة أسلوبًا من أجل البقاء، حيث يذكر إدوارد سعيد أن المتخصصين في باب الاستشراق باتوا يفضلون استخدام مصطلح «الدراسات الشرقية» أو مصطلح «دراسات المناطق»، ويقدمِّ سببين لهذا التحول؛ الأول: اتسامه بقدر أكبر من الغموض والتعميم. والثاني: أنه يحمل دلالة الاستعلاء. وإن لم يوضِّح إدوارد سعيد على من الاستعلاء، لكنه يعني – بالطبع – الاستعلاء على الآخر المدروس أو بالأحرى الآخر المجهول أو بأكثر تحريًّا الآخر الذي أُريد له أن يكون مجهولاً.

أمرٌ آخر يعكس فرقًا جوهريًّا في التناول لدى كل منهما؛ فإدوارد سعيد يرى أن فكرة الشرق مصنوعةٌ؛ حيث إن المستشرقين أرادوا رسم صورة الشرق على نحوٍ مُرْضٍ للعقلية الغربية المتحفِّزة للهيمنة والسيطرة، أو على الأقل تأكيد صورةٍ ما في عقلية الغربي، حيث يقول: «لم يكن سبب اكتشاف الشرق للصورة التي رُسِمَ بها يقتصر على أنّ مَن رسموه اكتشفوا أنه يمكن أن يصبح «شرقيًّا» بالصورة الشائعة لدى الأوروبيين العاديين في القرن التاسع عشر، ولكنه يتجاوزه إلى اكتشاف إمكان جعله كذلك، أي إخضاعه لتلك الصورة الجديدة للشرق»[٦]. ويعلل سعيد ذلك بأن هذه الصورة المصنوعة التي أنتجت ثنائية (الشرق – الغرب)

نابعة من أن «العلاقة بين الغرب والشرق علاقة قوة، وسيطرة، ودرجات متفاوتة من الهيمنة المركَّبة»[٧].

لكنَّ الأمر عند الأستاذ شاكر يبدو مختلفًا تمامًا، حتى مع حصره لفكرة الشرق في «ديار الإسلام»، فهو جعل المستشرقين نقَلة لتلك الصورة للشرق (ديار الإسلام) للعالم المسيحي، متمثِّلة في نقل تلك المخطوطات بما فيها عن حضارة الإسلام، وقد عكفوا على تحقيقها ونشرها، وأنشأوا لذلك مجلات تنشر ما يتوصلون إليه لفهم «أسرار هذا العالم الغريب الذي كان بالأمس ممتنعًا على الاختراق قرونًا طوالًا»[٨]. ومن ثَمَّ فغيرُ خافٍ ما بين الرؤيتين من بَوْن، لا يتمثَّل فقط في الشمولية التي تتسم بها رؤية إدوارد سعيد، ولكنه كذلك في أصل الفكرة لدى كليهما.

غير أنهما اتفقا في هذا الصدد على أمر؛ ألا وهو أن المستشرقين (سواء بفهم إدوارد سعيد أو بفهم الأستاذ شاكر) قد غرروا بالقارئ الأوربي، وجعلوه ألعوبةً يحركونها بأفكارهم نحو ما شاءوا، فمستشرق إدوارد سعيد جعل قارئه الأوروبي يرى الشرق بالصورة التي تحكيها عنه الأساطير، أو بصورة أخرى مصنوعة، وكلتا الصورتين تحقق له الهيمنة والغلبة، التي هي تضخُّم الذات الغربية، كذلك فإن مستشرق محمود شاكر جعل قارئه الأوروبي يثق في كل ما يقوله له، ولم لا؟ وهو الذي يعرف عن أولئك قرآنَهم ولغتَهم وتاريخَهم وفقهَهم وأدبَهم ... إلخ، حتى إذا قال له ما ليس بحقيقة فما عساه إلا أن يصدِّق ما يُقال.

غير أن هذا الاتفاق السابق يتولَّد عنه افتراق لا يلتقيان بعده أبدًا، وكلٌّ منهما يؤسس منهجه من هذه النقطة التي افترقا فيها، فالأستاذ محمود شاكر يرى أن كتب الاستشراق مكتوبة للمثقف الأوروبي وحده، فيقول: «ويبِنٌّ لك الآن بلا خفاء أن كتب «الاستشراق» ومقالاته ودراساته كلها، مكتوبة أصلا للمثقف الأوربي وحده لا لغيره -وأنها كُتبت له لهدف معين، في زمان معين، وبأسلوبٍ معين، لا يُراد به الوصول إلى الحقيقة المجرَّدة، بل الوصول الموفق إلى حماية عقل الأوروبي....»[٩]. كذلك فإنها (من وجهة نظره) غير جديرة باحترام مثقف غير أوربي، أي من أبناء العرب والمسلمين خاصة، أي أبناء لغة العرب وأبناء دين الإسلام، أو هي موضع نظر على حدِّ تعبيره[١٠]. وانطلاقًا من هذه الفكرة يأخذ الأستاذ محمود شاكر في غرس أعمدة الأضواء الحمراء وإشارات التحذيرات في طريق شُداة الثقافة من العرب والمسلمين إلى أن ينتهي في رسالته بقضية التفريغ الثقافي الذي أصاب الأمة، ولا شك أن كل ضوء أحمر أشعله يستأهل التوقف أمامه بالفحص والدراسة وليس هذا موضعه الآن.

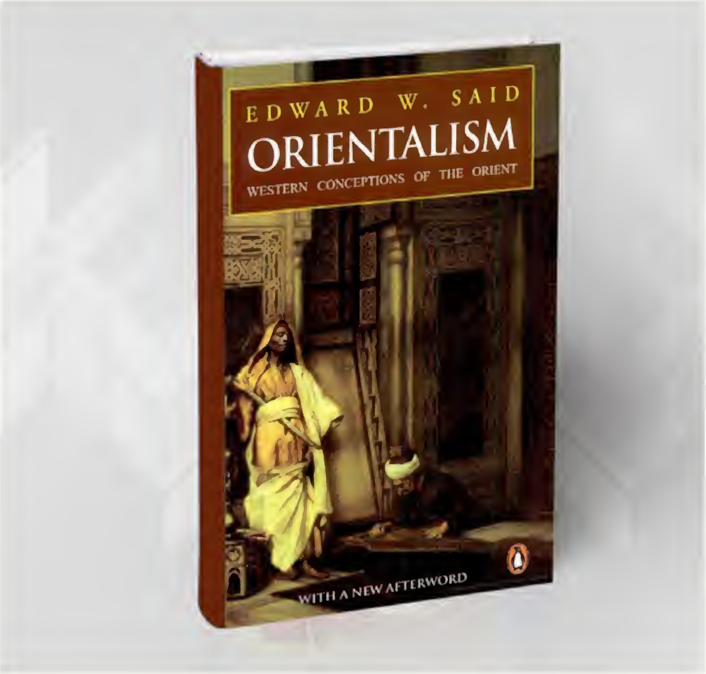

غير أن هذه النقطة ذاتها؛ أي: إلى من يتوجه خطاب الاستشراق؟ جعلت إدوارد سعيد يؤسس مشروعًا نقديًّا كبيرًا ومهمًّا، فهو يرى أن كتب الاستشراق وما تحمله من أفكار لا تخاطب فقط المثقف الأوروبي، بل هي معنية بالأساس بمخاطبة الشرقي بأفكارٍ عنه هو، لتجعله يحيا في حالة من التوهُّم بحقيقة هذه الأفكار، فقد تناول سعيد ذلك تحت ما سمَّاه (الجغرافيا الخيالية وصورها / إضفاء الصفات الشرقية على الشرقي)(١١) فكثيرٌ من الأفكار حول الشرق وصفاته خُوطِبَ بها عقل الإنسان الشرقي قبل عقل الغربي، حتى وإن لم يربطها بالحقيقة سبب، وإنما هي من صنع الإيهام بوجود الشيء أو الصفة أو الفكرة، وينطلق في ذلك من معتقده بأن «بعض الأشياء المميزة من صنع الذهن وإن هذه الأشياء التي يبدو لها وجود موضوعي، ليست في الواقع إلا أوهامًا»(١٢). وفي ضوء هذا التصور فقد رأى أن جُلَّ الأفكار المسلّم بها عن الشرق لدى الشرقي هي في حقيقتها من مخلفات الاستعمار، وأصبح من الضروري أن نقوم بنقدها، وتقويضها، وفضح ملابسات نشأتها، كل هذا جعله يؤسس لمشروعه النقدي المعروف بـــ «نقد ما بعد الاستعمار Postcolonial criticism»، الذي تُويع في دوائر نقدية عديدة، غربية وعربية.

إلى هنا نكون قد وقفنا على معالم أولية للإطار أو القالب الذي ستتحرك فيه أفكار الرَّجلَيْن تجاه الاستشراق، على أن يكون التوقف أمام تلك الأفكار في مقالات قادمةٍ بمشيئة الله، والله من وراء القصد.

الهوامش:

(١) ظهر كتاب إدوارد سعيد بالإنجليزية للمرة الأولى سنة ١٩٧٨م، وقد أعيد نشره سنة ١٩٩٥ في طبعة مزيدة عن دار بنجوين العالمية تحت عنوان Orientalism: Western Conceptions of the Orient وقد تُرجِمَ إلى العربية ترجمتين، الأولى لكمال أبو ديب سنة ١٩٨١م، والثانية للدكتور محمد عناني سنة ٢٠٠٦م وهي الطبعة التي تعتمد عليها هذه المقالة.

(٢) سعيد، إدوارد: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة د. محمد عناني، دار رؤية، ٢٠٠٦م، صـــ ٤٥.

(٣) يشار هنا إلى أن هذه هي ترجمة د. عناني لاسم الكتاب، الذي تُرجِم بعنوان : للهحفريات المعرفةلله، وقد ترجمه سالم يفوت، المركز الثقافي العربي ١٩٨٧م.

(٤) سعيد، إدوارد: الاستشراق، مرجع سابق، صـــ ٤٦

(٥) نفسه.

(٦) سعيد، الاستشراق، مرجع سابق، صـــ ٤٩ .

(٧) نفسه.

(٨) شاكر، محمود: رسالة في الطريق إل ثقافتنا، مكتبة الأسرة ٢٠٠٩م، صـــ٨٢.

(٩) شاكر: الرسالة، صـــ ٩٢.

(١٠) يُنظر: الرسالة صـــ ٩٤.

(١١) سعيد: الاستشراق، صـــ ١١٠.

(١٢) سعيد: الاستشراق، صـــ ١١٥.